

الادارة او التنظيم الاداري في العصر العباسي

د. دكسن بن زائد العزيزي

اعتقد ان الكثيرين قد سبقوني الى الحديث عن الادارة بمعناها الضيق ، أي ادارة دائرة معينة من الدوائر العامة ، أو الشركات أو المؤسسات ٠

أما انا فأريد أن احدثكم عن النهج الاداري على مستوى عام ، فلابد اذا من محاولة لتحديد الادارة بهذا المعنى ٠

تحديد الادارة :

واظن اننا عندما نقول : « أن الادارة هي تنظيم السلطة ، وتحديد مدى صلاحيات رجال السلطة فيما بينهم ، ونحو الافراد » وعلى هذا الاساس نكون قد وضحنا مفهوم الادارة بالنسبة الى موضوع هذه المحاضرة ٠

واعني بالسلطة في هذه المحاضرة جميع المؤسسات المتفرعة عن السلطة التنفيذية باعتبارها هي السلطة الادارية ٠

ولما كان موضوع محاضرتنا هو الادارة أو التنظيم الاداري على الاصح في الانبراطورية العباسية ، رأيت من واجبي أن الم المامة عامة بالاطوار التي مرت بها هذه الانبراطورية لكي نتلمس بشكل حيوي النهج الاداري الذي فرضته هذه التطورات ، الاجتماعية والسياسية وتمهيدا لهذا لابد لنا من التعرض لانتشار الاسلام الذي نشات عنه الخلافة التي كانت محور السلطة في كل عصر من عصور الدول الاسلامية ٠

انتشار الاسلام :

يعتبر علماء الاجتماع والتاريخ ان انتشار الاسلام بادرة فريدة في تاريخ الانسانية ، ويرى الكثير من الباحثين ان انتخاب الخلفاء الراشدين جرى بطريقة تكاد تكون معجزة ، لانها مناقضة لخلق البداوة ٠ اما دولة بني أمية فقد انتصرت على كل الصعوبات والفتن الداخلية ، وركزت سلطاتها في ذلك المنصب الرفيع أعني الخلافة التي جعلها الامويون وراثية فسيطروا على البلاد سيطرة فعالة ، واستطاعوا أن يفتحوا بلادا جديدة ، أضافوها الى البلاد التي تسلموها من الخلفاء الراشدين ، وتمكنوا أن يديروا البلاد بالاستبداد مستعملين الارهاب حينا ، والرشوة أحيانا ٠

فقد كان داهيتهم معاوية بن ابي سفيان يقول : « لو كان بيني وبين الناس شعرة ، ما جعلتها تنقطع ، ولعل معاوية هو أول من حدد الادارة تحديدا يدل على صعوبة الادارة ، اذ اعتبرها مجموعة من المعضلات التي تحتاج الى الحل السريع الذي يعتمد على المعية رجل الادارة ، وذكائه المبتكر ، فسمي الادارة (معاناة قلوب الرجال) فقال متضجرا : « معاناة نقل الجبال ، أخف علي من معاناة قلوب الرجال » •

سقوط دولة بني أمية :

لا نريد أن نبحث عن الاسباب التي اودت بدولة بني أمية . ولكن لابد لنا من القول أن الفتن الداخلية والشقاق الذي عجز بنو أمية ان يصدوا تياره قد عصف بهذه الدولة التي أرست اسسها على القومية العربية ، وابرزت الشخصية العربية ايما ابراز • لكن اتفاق ذرية علي ، وذرية العباس عم النبي الكريم ، أجهز اجهازا نهائيـا على سلطة بني أمية • لـكن محاولة العباسيين أن يسحقوا الامويين ، وغدرهم بحلفائهم ذرية علي ، واستعمالهم الارهاب المخالف لسماحة الاسلام ، والبعيد عن التسامح العربي ، زرع دولة بني امية في الاندلس ، وغرس دولة الادارسة الشيعية في مراكش والجزائر •

دولة بني العباس تذل العنصر العربي :

ودولة بني العباس قامت على اتهام العرب وسوء الظن بهم ، وتأسست بسيوف الفرس وقد كتب مؤسس الدولة العباسية (ابراهيم بن محمد بن علي) قبل السفاح الى أبي مسلم : « ان استطعت ان لا تدع في خراسان لسانا عربيا فافعل ، فأيما غلام بلغ خمسة اشبار تتهمه فاقتله » • وما دام الامر كذلك فليس عجيبا ان يفقد العباسيون العنصر العـربي امتيازاته ومزاياه ، مع هذا فلابد من الاقرار بفضل العباسيين الذين طبعوا ثقافة العالم بطابع العروبة ، اذ ترجمت كتب الطب والفلك والكمياء الى العربية ، فأصبحت اللغة العربية سيدة لغات العالم ، بما تدفق في محيطها من روافد العلم ، واضحت اغنى لغات الدنيا بما ضمت من كنوز المعرفة والحكمة الانسانية • وعلى الرغم من اذلال العباسيين للعنصر العربي ، فانهم اظهروا تسامحا يحمد لهم ، لانهم تبنوا رجال العلم من غير العرب ومن غير المسلمين، فكانت معاضدة العباسيين للعلم والادب مثالا يحتذى ، ولعله من مفاخر العباسيين ، لا بل من مفاخر التاريخ العربي ، ان يكون العرب أسبق أهل الارض كافة الى فرض الغرامة الحربية على المغلوبين كتبا علمية فكانت الجمال التي هي أشهر وسائل النقل يومذاك تدخل بغداد محملة كتبـا علمية ، فرضت غرامة على المغلوبين •

أ ـ أشنع اغلاط الدولة العباسية :

ولعل اشنع ما وقعت فيه الدولة العباسية من الاغلاط :

أ ـ وقوفها من العرب موقف الناقم طالب الثأر . ب ـ واتباعها نظام الاقطاع . جـ ـ واتباعها نظام المركزية في اول الامر ووقوفها موقف الحياد من الامور فيما بعد .

الدولة العباسية في القرن التاسع للميلاد :

لكن ما عتمت الدولة العباسية ان أصبحت انبراطورية يستحيل أن تساس على الطريقة المركزية لذا أخذ المغامرون يقتطعون منها دويلات قصيرة العمر . اما الخلفاء ، فقد احتفظوا بالعراق وبلاد فارس الغربية وعادت جزيرة العرب الى عزلة تكاد تشبه عزلتها في أيام الجاهلية ، ولولا أن ذكر الخلفاء كان يجري في الخطب الدينية ، لعد الخلفاء بعض اولئك الامراء والسلاطين والملوك .

الثقافة العربية في عهد العباسيين :

وعلى الرغم مما أصاب الانبراطورية العباسية من تفكك سياسي ، فان الثقافة العربية قد بلغت اوج ازدهارها فترجمت كتب الفلاسفة والرياضيين من اليونان ، بفضل من نبغ في بلاط بني العباس من النصارى والنساطرة واليهود الوثنيين ، ولما استوعبت العلوم المترجمة وجاء دور التأليف ، ونبغ في ظل الخلافة العباسية جماعة من افذاذ العباقرة ، صنفوا من الكتب ما يفتخر به العقل العربي ، وقد ظل هذا التراث الضخم كل أيام القرون الوسيطة ، وأيام نهضة اوربا غذاء للعقل الانساني ، ولعل الانصاف يفرض علينا ان نذكر أن حملة العلم هؤلاء الذين اغنوا لغتنا الشريفة بثمرات عقولهم ، وسجلوا لنا انصع صفحة في تاريخ الانسانية ، لم يكونوا عربا دما ، وان كانوا عربا بلغتهم وبمزاجهم . وممن نذكرهم نحن بفخر ويذكرهم العالم باجلال :

أ ـ الخوارزمي الذي كتب في الهندسة والجبر والحساب والمثلثات والفلك .

ب ـ البستاني الذي الف في الجغرافية وعلوم المعادن والكيمياء ، والبصريات وعلم النبات .

جـ ـ الرازي الذي كتب في الطب ، وهو أول من نبه على اعراض السل ، ونبه على الفرق بين الحصبة والجدري ، واستعمل المرقد ، وراقب المرضى مراقبة سريرية في نحو خمسين حالة .

اذلال الخلافة ـ بسيادة البويهيين ـ نشـوء التصـوف ، ونشوء فرقـة الاسماعيلية والقرامطة :

لما تمت السيادة لبني بويه وهم من غلاة الشيعة أصاب الخلافة وهن مخيف واذلال محزن ، ونشأ التصوف عن السنة ، ونشأت فرقة الاسماعيلية والقرامطة عن غلاة الشيعة ، وأخذت تنافس خلافة بغداد خلافة شيعية في تونس سنة ٩٠٦ وخلافة اموية في الاندلس سنة ٩٢٦ ، وجاءت الدولـة الفاطمية الشيعية وطردت بني الاغلب من تونس ، واستولت على مراكش وصقلية ، وانتزعت مصر وجنوبي الشام من الاخشيديين سنة ٩١٩ واسست القاهرة ، ونقلت اليها مقر الخلافة سنة ٩٧٢ ٠

فتنة القرامطة :

وابتدأ القرن العاشر للميلاد بفتنة القرامطة ، الذين أخذوا يقرعون ابواب بغداد ، وتمكن القرامطة من الاستيلاء على مكة سنة ٩٣٠ ، واستحدث أبو الحسن الاشعري مذهبا سنيا سفه به مذهب المعتزلة ٠ لكن بغداد ظلت كعبة العلم والثقافة في عهد عضدالدولة وشرفالدولة البويهيين اللذين رعيا البحوث الفلكية والرياضية ٠

بلاط بني حمدان :

وفي هذا الدور كان بلاط بني حمدان في حلب والموصل يعج بالعباقرة من جميع الاجناس ٠

وبلاط بني سامان :

ومثله بلاط بني سامان ـ وكان ممن نبغ في هذا الزمن :

المسعودي ، الطبـري ، المتنبي ، والفـارابي الفيلسوف ، صاحب النظريات في الموسيقى والاصفهاني صاحب كتاب الاغاني ، وأبو الوفاء ، والجراح أبو القاسم ٠ وشاعت في هذا القرن الارقام الهندية ، وصنف كتاب ألف ليلة وليلة ، وحاول العرب أن يتفوقوا على الفرس من الناحية العقلية ، فالفوا في الانساب والتاريخ وفقه اللغة ، والفت رسائل اخوان الصفاء ، وهي خمسون رسالة فلسفية على الطريقة الغنوصية ، وكان جهد العرب العلمي متفوقا على كل جهد بذل في عواصم العالم حتى القسطنطينية نفسـهـا ٠

السلاجقة الترك يشوهون وجه التسامح العربي :

وفي مستهل القرن الحادي عشر ، كان السلاجقة الترك الذين انتصروا

على البوزنطيين قد أخذوا يضيقون على حجاج النصارى تضييقا أثار حفيظة البابا « اوربان » الثاني سنة ١٠٩٥ ، اثارة انتجت الحملات الصليبية التي أساءت الى الشرق والغرب بما زرعت من احقـاد وما أشاعت من خـراب وفســـاد .

وعلى الرغم من كل تلك الهزات العنيفة ، فان العالم الاسلامي الـذي تمثله الانبراطورية العباسية ، كان قد احتكر العلم ، بحيث لم يعد في العالم بقعة تستطيع ان تنافس العالم الاسلامي فنبغ :

أ ـ البيروني الذي قال عليه (سخو) أنه أعظم عقلية عرفها التأريخ .
ب ـ ابن سينا الطبيب الفيلسوف الذي قال عليه سارتن أنه أعظم علماء الاسلام وأنه من أشهر المشاهير العالميين .
جـ ـ وابن الهيثم الذي تخصص في البصريات .
د ـ الغزالي حجة الاسلام .
هـ ـ ابن يونس الفلكي ، والحجة في الحساب والمثلثات .
و ـ والكرخي العالم في الرياضيات .

وفي هذا الدور ظهر جماعة ينافسون علماء العرب ، وينافسون اللغة العربية نفسها لانهم كتبوا ما انتجت قرائحهم بالفارسية ، أمثال الخيـام الشاعر ، والعالم الرياضي ، والفردوسي المؤرخ والشاعر وغيرهما .

الصليبيون في القرن الثاني عشر :

وفي القرن الثاني عشر أخذ الصليبيون يضربون كل ما واجههم في طريقهم وليس لهم من غرض سوى التدمير ، لكن النشاط العقلي عنـد المسلمين ظل عظيما على الاجمال ، الا أنه في نهاية هذا العصر أخذ أصحاب الجدل ، والرجعيون من أهـل الجمود ، يضربون عقـول الناس بالعقم والجمود .

بؤس العرب ونهاية الدولة العباسية في القرن الثالث عشر :

لقد كان القرن الثالث عشر حـاق ما وصلت اليه حالة العـرب من البؤس ، اذ دمر هولاكو حفيد جنكيزخان المغولي الخلافة العباسية ، ودمر بغداد ، واذل العرب والاسلام أشنع اذلال عرفه تاريخ بني الانسان ، فأخذت الثقافة تنتقل الى الاوربيين ، وان كان قد ظهر بين المسلمين من متصوفة العلم ورهبانه أمثال :

أ ـ ابن البيطار النباتي الشهير .
ب ـ ونصرالدين الطوسي الفيلسوف الرياضي .
جـ ـ وابن خلكان صاحب التراجم المشهور .

والآن بعد ان صورنا الجو الذي كان مخيما على الانبراطورية العباسية من يوم نشوئها الى اليوم الذي وثدت فيه تلك الانبراطورية التي ورثت الانبراطورية الفارسية ، والانبراطورية الرومانية ـ نتقدم الى الناحية الادارية :

انشاء الدوائر العامة :

فهذا الارث الذي ورثته الانبراطورية العباسية فرض عليها انشاء الدوائر العامة :

أ ـ الوزارات بأنواعها ·
ب ـ الامارات بأنواعها ·
جـ ـ الدواوين بأنواعها ·
د ـ لقب السلطان ·
هـ ـ لقب الملك ·
و ـ القضاء بأنواعه ·

وهنا لابد لنا من التنبيه على نقطة وهي أن العرب سموا الوزير أميرا حينا وسلطانا حينا آخر ودعوه في بعض الاحيان زعيما ، وسنوضح ذلك في مطاوي كلامنا ، أجل هذا فرض انشاء الدوائر العامة ـ تلك السلطات المستقلة · وقد جاء انشاؤها خاضعا لقواعد ونظريات حقوقية غرضها تسيير العمل المنتظم الدائم لهذه الدوائر ، لسد الحاجات العامة بأسرع ما يمكن ، وعلى أكمل وجه ممكن ·

القائمون على الادارة :

ومن هنا كان القائمون على الادارة العامة لهم أوضاع حقوقية معينة ، تختلف عن أوضاع القائمين على الادارة في عصرنا ·

النهج الاداري :

ومن المعلوم ان الكيان الاداري يقوم على وحدة أعمال الادارة وشمولها لجميع أفراد الدولة ، وامتدادا لهذا المفهوم نستطيع ان نقرر أن النهج الاداري في العصر العباسي ، كان يقوم على مفهوم المركزية ، كما كان في العصر الاموي والعصر الراشدي · وقد كان يقضي في هذه الدولة التي ورثت أملاك الروم والفرس بقضاء دستوره القرآن الكريم ، وكان الجهاز الاداري مرتبطا ارتباطا كليا بالخليفة ، وكان التعيين هو المبدأ السائد في المناصب كلها ، سواء أكان ذو المنصب وزيرا ، أو أميرا ، أو رئيس ديوان أو سلطانا · أو ملكا ، أو قاضيا · وبذلك تتجمع القوة والعمل في السلطة

المركزية ، وبذلك ينتج النظام التسلسلي ، لحاجة العناصر المركزية لاشخاص ينفذون أوامرها في أطراف الدولة ، فيكون رجال الدولة في هذا النهج كالهرم فمن الاعلى الى الادنى حتى القاعدة وقد كان هذا النهج السائد في اوربا في تلك الحقبة ، وما قبلها فكانت الانبراطورية الرومانية المقدسة تسير على النهج الاداري المركزي ، كما كان الامر في الانبراطورية العربية ·

موازنة بين الانبراطورية الرومانية المقدسة والدولة الاسلامية :

لقد تشابهت الانبراطورية الرومانية المقدسة والدولة الاسلامية من حيث ادعاء كل منهما انها وجدت بمشيئة الله · لكنهما اختلفتا اختلافا عميقا في الجذور التاريخية لكل منهما ، فالنظام السياسي في الغرب كان امتدادا لمؤسسة موجودة تاريخيا ، وكل ما صنعه الغرب أنه حاول تنصير هــذه المؤسسة الوثنية التي كانت قائمة قبل النصرانية ، وربط واقعها الديني بتلك الجذور التاريخية قبل النصرانية · وبالتالي بعث السلطة الزمنيـة مطبوعة بطابع مسيحي ·

اما الدولة الاسلامية أو على الاصح الخلافة الاسلامية ، وما يتبعها من تنظيم اداري فقد جاءت من غير تصور متعمد · أي ان الخلافة وما تبعها من تنظيم اداري وسياسي كان وليد المرحلة الزمنية والنظام الاجتماعي الذي نشأ عن الفتوحات الضخمة ، والامم المختلفة التي صهرها الحكم العربي في بوطق[1] عبقريته ، ولم يكن احياء لاية مؤسسة سياسية أو ادارية في زمن سبق ، بصرف النظر عن انتخاب الخليفة في العصر الراشدي الذي لم يسر عليه العصر الاموي ولا العصر العباسي ·

النظام الاجتماعي يفرض لونا من الادارة :

واذا كان النظام الاجتماعي في أية مرحلة من مراحل تطور المجتمع أي مجتمع ، يفرض أنظمة سياسية وادارية واجتماعية معينة ، نجد ان التركيب الاجتماعي العربي قـد فرض نظـام المركزية المطلق في الحكم في العصـر الراشدي · والعصر الاموي ، والعصر العباسي · وتلاه عصر الانحطاط بغزوة هولاكو كما رأينا ، وحطم الحضارة العربية التي كانت تتوثب لمرحلة الثورة الحقوقية ، واستسلم المجتمع العربي للغزاة ، واجتاحت اوربة فيما بعد المرحلة الميركانتيلية الثورة الصناعية ، والثورة الحقوقية وانقذ الفقهاء المؤسسات الحقوقية السائدة ، وطوروا مفهوم فصل السلطات ، وأصبحت الافكـار الديمقراطية تغزو التفكير السياسي ، وارتفـع مستوى النظـام الاجتماعي في اوربا ، وأخذ مفهوم اللامركزية في النهج الاداري يفرض وجوده

(١) في محيط المحيط البوتقة ، وقد نبه على هذا الوهم العلامة العراقي الكبير الاب انستاس ماري الكرملي في كتابه اغلاط اللغويين الاقدمين ص ٣٤٥ ·

في الحكم الاوربي ولاسيما في فرنسة ، وكان ادخال العناصر اللامركزية قد استهوى مفكري العرب في أواخر العهد العثماني وأصبحت كلمة اللامركزية مرادفة للتحرر • ومن هنا أخذ أحرار العرب الذين لم يكن غرضهم في أول الامر أن ينفصلوا عن الانبراطورية العثمانية ، أخذوا يطالبون باللامركزية ، فدفع الكثيرون من هؤلاء الاحرار أرواحهم ثمنا لهذا الطلب •

النظام التسلسلي :

يقوم النظام التسلسلي على حقوق الادارة الشخصية للاعلى على الادنى . فلا يستطيع رجال الادارة الاولى في المركزية أن يخرجوا على ارادة الرجل الاعلى ، كما يخضع الادنى الى حق الافراد بالاشتكاء من رئيسه الى من هو أعلى منه بطريق الظلامة • وهكذا كان وضع الادارة في العصر العباسي •

الادارة في العصر العباسي :

ان التقصي يدلنا على ان الادارة في العصر العباسي ، قبل أن يدرك الدولة الهرم السياسي ، كانت تسير على أسس منظمة ، تشبه أنظمة الممالك الحديثة ، ويمكننا ان نقول أنها كانت من بعض الوجوه أرقى مما هي عليه الآن في بعض الدول العصرية اذ كانت المناصب مفتوحة أمام الجميع على السواء ، لا فرق بين المسلمين والنصارى واليهود والهنود ، وليس أدل على الفرق بين الدولة الاموية والدولة العباسية من كثرة التشكيلات في الدولة العباسية ، تلك التشكيلات التي أخذت بها الدول الاسلامية المتعاقبة وسارت على نمطها •

الخليفة هو الرئيس الاعلى للدولة :

وكان الخليفة هو الرئيس الاعلى للدولة ، وليس في استطاعتنا اليوم أن نتصور مقدار القداسة التي كان ينالها الخليفة أو منصب الخلافة على أثر مبايعته ، فقد كان الدعاء للخليفة في كل مكان ، والصلاة التي تقام في المساجد الجامعة ، ولاسيما الحرمين تكسب الخليفة والخلافة هالة من القداسة ، لا يمكن ادراك مداها ، فكان ذلك مصداقا للقول المأثور : « صوت الشعب من صوت الله » (فوكس بوبولي فوكس ديي) •

واعتقاد الناس أن جميع القوانين والاحكام التي يسوس بها الخليفة أمته من صوت الله كان يعرف عندهم باجماع الامة فمبايعة الخليفة معناها أنه أصبح أميرا للمؤمنين وهو مصدر الحكومة الشرعية وله وحده حق تعيين الولاة والسماح لهم ان ينظروا في الاحكام ، يؤم الناس في الصلاة ، لذلك كان السلاطين والملوك والامراء الذين يقفزون الى السلطة بالقهر ، كانوا يحاولون تثبيت سلطتهم بموافقة الخليفة على سلطتهم ، وتثبيت الخليفة

لامثال محمود الغزنوي وملكشاه السلجوقي وصلاح الدين الايوبي ، معناه ان كل ثائر عليهم يعد كافرا زنديقا • وكانت موافقة الخليفة تتم بعقد وتشريف قوامه عمامة منضدة بالجوهر ، وسيوف واعلام •

وقد استحدثت الدولة العباسية بفضل عبقرية المنصور نظما سارت عليها الدول التي انفصلت عنها • وقد تحول المنصور عن ادارة الخلافة الاموية التي كانت استبدادية ، ولم يلطف من حدة استبدادها الا حرية الرأي المعروفة عن العربي ابن الصحراء ، واخلاص بعض الاتقياء والعلماء الذين كانوا يتعرضون للخليفة بالزجر ، وسلاحهم في ذلك بعض الآيات القرآنية ، وقد كانت الخلافة على الرغم من المجلس الاستشاري غير الرسمي الذي استحدثه المنصور وكان مؤلفا من الوزراء الذين عرفوا لاول مرة في تاريخ الاسلام في هذا الدور ومن أفراد الاسرة المالكة البارزين •

وكان الخليفة كما المعنا مصدر السلطة ، والوزير نائبه ، فكان على هذا الاساس يستعمل السلطة باسم الخليفة استعمالا مطلقا ، ويشرف على الرسائل الرسمية ، وعلى واردات الدولة ونفقاتها وعلى تعيين موظفيها وعزلهم وكان يجمع في شخصه رئاسة الادارتين العسكرية والمدنية ، وكان يساعد الخليفة في أعماله العادية •

أجل كانت هذه هي مهام منصب الوزير ، لكن تراكم الاعمال ، جعل قيام الوزير باعماله بشخصه مستحيلا ، فصار يجب عليه ان يستعين بموظفين يساعدونه ، على شرط ان يكونوا تحت اشرافه ومن هنا برزت فكرة الادارة المركزية أو التمركز الاداري في العصر العباسي •

أول حكومة دستورية في العصر العباسي :

كانت أول حكومة دستورية تطورت عن الاوتوقراطية العباسية قد انشئت في عهد المأمون فيلسوف الخلفاء ، فقد أسس لاول مرة مجلس شورى نظاميا للدولة ، يمثل جميع الطوائف التي تعترف بسلطة الخليفة ، وقد منح نواب الامة مطلق الحرية فلم يحل بينهم وبين حرية الرأي والمناقشة •

وقد تحولت هذه المجالس يوم انحطاط الخلافة الى مجمع ديني ، ويحدثنا المؤرخون أن مجلس صلاح الدين الايوبي كان منتظم الانعقاد ، برئاسة السلطان أو برئاسة القاضي الفاضل ، للنظر في شؤون الدولة ، وكان أعضاء هذا المجلس يرافقون السلطان حتى في أثناء الحروب والغزوات •

جهاز المباحث في الدولة العباسية :

وكان للخلفاء مكاتبون سريون ، ينقلون لهم أدق الاسرار ، فكان الخليفة يرى ويسمع كل ما يدور في جلسات الناس ، ويقال ان الخليفة

الناصر لدين الله الذي بويع بالخلافة في ٣٠ آذار سنة ١١٨٠ وظل خليفة ستا وأربعين سنة وعشرة أشهر وثمانية وعشرين يوما ، وهو أطول خلفاء بني العباس مدة توفي سنة ١٢٢٥م في السادس من تشرين الاول كان يعرف كل ما يقع في بلاده ، وفي البلاد المجاورة حتى اعتقد الناس أن له اتصالا بالجن • وكان الخليفة يعتمد على أشخاص غير رسميين لالتقاط الاخبار من تجار وغيرهم ، ولما تحولت الخلافة سلطة دينيـــة أصبحت وظائف هؤلاء المخبرين مندوبين يتولون عن الخليفة في بلاط نيسابور ومرو والموصـــل ودمشق كسفراء البابا في أواخر العصور الوسيطة في اوربا • وكان هؤلاء المندبون يصحبون الملوك الذين يمثلون الخليفة في قصورهم ، ويصحبونهم في حروبهم ، كما أقاموا فعلا في معسكر ألب أرسلان ، وملكشاه ونورالدين وصلاح الدين ، وكان الملوك يعينون لهم مندوبين عند الخليفة ، يطلقون عليهم (شاهناس) لان التنافس كان شديدا على بسط النفوذ على بلاط الخليفة لانه مصدر السلطات الشرعية ، وقد حصل مثل هذا تماما في روميـــــة •

وقد كان غرض الانبراطورية العباسية في أوائل عهدها أن تثبت أسس ملكها ، ومن أجل هذه الغاية توقف الخلفاء العباسيون عن الفتوحات والغزو ، فلم يبعثوا الجيوش الى مصر العليا والديلم وكابول ، لقمع القبائل المتوحشة ، امـا حروبهم مع الروم فلم تكـن الا تاديبا لهم لانهـم كانوا ينقضون العهود •

الوزارة في العصر العباسي :

كان أول وزراء بني العباس أبا سلمه حفص • بن غياث بن سليمان الهمداني ، وزير السفاح ، وهو أول من سمي وزيرا في الاسلام ، ولم يكن قبله من يعرف بهذا النعت ، لا في دولة بني أمية ولا في غيرها ولما نكب هذا الوزير قال الشاعر :

أن الوزير وزير آل محمـــــد اودى فمن يشناك كان وزيرا

أنواع الوزارات :

وكانت الوزارة تقسم الى قسمين :

١) وزارة التفويض مثل امارة الاعمال ، وفيها يستوزر الخليفة رجلا يفوض اليه تدبير الامور برأيه ويحكم فيها باجتهاده فيتولى كل الامور التي يمضيها عن الخليفة الا ثلاثة أمور :

أ ـ ولاية العهد •

ب ـ لا يحق لهذا الوزير أن يعزل من يريد الخليفة أو يعزل من يوليه

الخليفة وللخليفة أن يعزل من يوليه الوزير ·
جـ ـ لا يحق لهذا الوزير ان يستعفي الامة من الامامة ·

ومن وزراء التفويض آل برمك ، ويحي بن أكثم ، وابن الفرات وكان بنو العباس يسلمون لوزرائهم الخاتم ويختمون به الكتب ·

٢) وزارة التنفيذ :

وسلطة الوزير فيها مقصورة على تنفيذ ما يراه الخليفة فيكون الوزير واسطة بين الخليفة والرعية ، فيمضي ما يأمره الخليفة من تقليد الولاة وتجهيز الجيوش ويعرض عليه ما ورد من مهم الامور وما تجدد من الاحداث الملحة ، خلافا لوزير التفويض ، فانه يولي ويعزل كما يشاء ، ويقضي ويمضي بلا حد ولا قياس وللخليفة أن يستوزر وزيرى التنفيذ ، أحدهما للحرب والآخر للخراج ، ولكنه في الغالب لا يستوزر الا وزيرا واحدا ·

وقد كان راتب الوزير في عهد المقتدر على الله العباسي الخليفة الثامن عشر الذي قتل سنة ١٠٣٢م ٣٢٠هـ لوزيره (علي بن عيسى) الذي اشتهر بعفة نفسه ، كان راتبه الشهري خمسة آلاف دينار أما راتب الوزير في الدولة الفاطمية فكان على هذه الصورة :

أ ـ راتب الوزير مشاهرة خمسة آلاف دينار (٥٠٠٠) ·
ب ـ راتب لكل واحد من اخوته وأبنائه من ٢٠٠ ـ ٣٠٠ دينار شهريا ·
جـ ـ راتب كل واحدمن حواشيهم من ٣٠٠ ـ ٥٠٠ دينار شهريا ·

ما عدا الاقطاعات وما كان يدفع لهم من الهدايا في المواسم وما يخلع عليهم من الخلع في الاعياد ونحوها وربما بلغ راتب الوزير وتوابعه وما يلحقهم من الاقطاع مائة ألف دينار في السنة ·

لان الوزارة أم الخطط السلطانية واسمها يدل على مطلق الاعانة فالكلمة مأخوذة اما من المؤازرة وهي المعاونة ، أو من الوزر وهو الثقل ، وكان الوزير يحمل اوزار الملك واثقاله وهو راجع الى المعاونة المطلقة ·

تقسيم الوزارات فيما بعد :

لقد قسموا فيما بعد الوزارة الى أربع وزارات :

١ ـ وزير المالية
٢ ـ وزير الخارجية
٣ ـ وزير ادارة القضاء والنظر في حوائج المتظلمين
٤ ـ وزير لادارة الجيش ودفع رواتبهم وحماية الكافة ويشبه وزير الدفاع وقد يسمى وزير دفاع ·

ولكي يميزوا الوزراء الذين كانوا يديرون شؤون الدولة من أعضاء مجلس الخليفة ، كانوا يسمون الوزير من القسم الاول بالوزير ذي الوزارتين

وكان كبير الوزراء يسمى الحاجب ، وهو يتصل بالخليفة رأسا ويتلقى منه الاوامر ، وكانوا يجلسون في ايوان واحد ــ غير أن كرسي الرئيس كان أعلى من كراسي بقية الاعضاء .

أما المستشارون الخاصون ، فكانوا كالوزراء يجلسون مع الخليفة في ايوان الخلافة ، وكان ثمة وكلاء او كتاب دولة من جملتهم هؤلاء الكتاب .

أ ــ كاتب الرسائل
ب ــ كاتب الزمام ، وكان يعهد اليه ان يعتني بأهل الذمة .
جـ ــ واخر يعهد اليه الاشراف على الحسابات العامسة ويسمى صاحب الاشغال وكان منصبه يقابل منصب وزير المالية عندنا .

الدواوين ــ الدواوين الكبرى ــ الدواوين الصغرى :

كان في الدولة العباسية دواوين عديدة وكانت هذه الدواوين تقسم الى دواوين كبرى ودواوين صغرى أما الدواوين الكبرى فهي :

أ ــ ديوان الخراج
ب ــ ديوان الضياع السلطانية
جـ ــ ديوان الزمام ــ قلم مراقبة الحسابات
د ــ ديوان الجند .
هـ ــ ديوان الموالي والغلمان
و ــ ديوان البريد
ز ــ ديوان زمام النفقات
ح ــ ديوان الرسائل
ط ــ ديوان التوقيع
ى ــ ديوان النظر في المظالم
ك ــ ديوان الاحداث والشرطة .. وكان لكل مدينة شرطة خاصة برتب عسكرية خاضعة لرئيس يسمى (صاحب الشرطة) وهي تختلف عن الشرطة المدنية في الواجبات التي تقوم بها . وتقسم من حيث الاختصاص الى فرق أو أقسام على حسب اقسام المدينة . وكانت كل فرقة تقوم بحماية ارواح وأملاك السكان في منطقة معينة ، وكانوا يسعون ليلا بين المنازل والشوارع برئاسة ضباطهم وكانت تدفع لهم رواتب حسنة ، ومن هذا نرى أنهم كانوا يقومون بأعمالهم بكل دقة واخلاص، وكان منصب رئيس شرطة بغداد يعادل مرتبة الحاكم أو الوالي ، وقد شغل هذا المنصب في عهد المأمون طاهر بن الحسين حينا من الزمن ، الى ان استعمل على خراسان ، وقد صار هذا المنصب فيما بعد ترشيحا للوزارة .
ل ــ ديوان العطاء أو ما يشبه دائرة حسابات الجيش .

م ـ ديوان الاشراف على مصالح أهل الذمة وهو ديوان خاص برئاسة موظف يدعى كاتب الجهبذة ٠

أما الدواوين الصغرى فكان منها :

أ ـ ديوان العطايا ويسمى ديوان (المقايتات)

ب ـ واخر يشرف على أعمال الري ويسمى ديوان (الاقرحة) ٠

وهذا دليل على ان الدولة العباسية كانت أقل استبدادا من الدولة البيزنطية ، وأقل تمسكا بالرسميات منها ٠

حياد الدولة العباسية :

على كل المركزية التي كانت تسير عليها الدولة العباسية ، فانها كانت تتبع سياسة عدم التدخل في شؤون الطوائف المختلفة ، وقد كانت تغالي احيانا في حيادها حتى الحقت الضرر بمصالح الدولة ، وكانت الحكومة العليا لا تتدخل الا عند نشوء الاضطرابات او اذا رفض الاهلون أن يدفعوا الضرائب مع هذا فانها كانت تشرف أدق الاشراف على أعمال الري التي تصلح الزراعة والخراج ، وقد كتب أبو يوسف قاضي قضاة الانبراطورية العباسية على عهد هارون الرشيد يوضح للرشيد أن من واجب الحكومة ان تبني الجداول الجديدة على نفقتها الخاصة وتنظف الجداول القديمة ، وترممها وتحتمل نفقات الصيانة وتوزيع المياه ، ويوصي ان تنشأ شرطة نهرية ممتازة الكفاية تعمل على ازالة العقبات التي تعرقل الملاحة في الانهر الكبيرة ولا سيما نهر دجلة ٠

الامارة والامراء :

كان علماء السياسة الشرعية قديما يستعملون كلمة أمير في موضعين :

الاول ـ أمير الجيش أي قائدهم

الثاني ـ أمير البلاد وهو يقابل المحافظ في لغة الادارة وكانوا يستعملون كلمة عامل ووال في هذا المعنى أيضا ، وكان الذي يوليه الوزير يعزل بموت الوزير على نقيض من يوليه الخليفة وتقسم الامارة على رأي الماوردي الى :

أ ـ امارة عامة وهي امارة الاستكفاء

ب ـ امارة استيلاء

ويوم انحطت الوزارة احدث الراضي الخليفة العشرون منصب امارة الامراء وقد تولى الراضي في ٢٣ نيسان سنة ٩٣٤م وتوفي سنة ٩٤٠م وسنعرض لامارة الامراء ونحن نتكلم على انحطاط الوزارة لان هذا المنصب مستحدث في الدولة العباسية ٠

ولا بد اننا نسأل عن مسؤوليات أمير الاستكفاء ، وكان الخليفة يفوض إمارة بلد او اقليم ولاية على جميع أهله في المعهود من سائر أعماله ، فيصبح من حق هذا الامير ان ينظر في أمور الاقليم كلها ضمن حدود امارته ويشتمل نظره على سبعة أمور ٠

١ ـ تدبير الجيوش وترتيبهم في النواحي وتقدير ارزاقهم ، الا ان يكون قد قدرها قبلا فتبقى على حالها ٠
٢ ـ النظر في الاحكام وتقليد القضاة والحكام ٠
٣ ـ جباية الخراج وقبض الصدقات وتقليد العمال فيهما وتفريق مسا استحق منهما ٠
٤ ـ حماية الدين ومراعاته من التغيير والتبديل ٠
٥ ـ اقامة الحدود في حق الله وحقوق الآدميين ٠
٦ ـ الامامة في الجمع والجماعات يؤم بها أو يستخلف عليها ٠
٧ ـ تسيير الحجيج من عمله ومن سلك في اقليمه من غير أهل ذلك الاقليم حتى يتوجهوا معانين ٠ اما اذا كان الاقليم ثغرا متاخما للعدو فـان على أمير الاستكفاء واجبا ثامنا وهو جهاد الاعداء الذين يلونه ، وان يقسم الغنائم على المقاتلة ويأخذ خمسها لبيت الله ٠ ولعل ، كلمــة الامير الادارية مأخوذة من الامارة الحربية ،فان الخليفة كان يؤمر الرجل على جيش الفتح فاذا كتب الله له الظفر فقد يستبقيه عاملا على البلاد المفتوحة فيسميه الناس باسمه الذي يعرفونه به من قبل ٠

وهناك نوعان اخران من الامارة في رأي الخطباء وهما :

أ ـ الامارة الادارية ويسميها الفقهاء الامارة على البلاد ٠
ب ـ الامارة الحربية أي الامارة على الجهاد ٠

مسؤوليات الامارة على البلاد :

علمنا أن الخليفة كان يدير الامور في عاصمـة ملـكة امـا البلـدان والاقاليم القريبة والبعيدة فكان يحكمها الامراء ، ومن يتصفح كتب التاريخ يجدها تستعمل في كلامها على ولاية الامراء تعبيرين :

١ ـ الامارة على الصلاة والخراج ٠
٢ ـ الامارة على الصلاة ٠

ولم تكن كلمة الصلاة تعني في نظر المؤرخين امامة الناس في صلواتهم فقط بل كانت تعني الولاية في جميع الامور الدينية والسياسية والحربية والقضائية والادارية باستثناء جباية الاموال فاذا جمع الامير الصلاة والخراج كانت امارته عامة في لغة السياسة الشرعية وان قصروا امارتهم على الصـلاة وحدها فهي امارة خاصة ٠

الفرق بين الامارة في عصر بني أمية وفي عصر بني العباس :

كان أكثر الامراء في العهد الاموي يجمعون بين الصلاة والخراج ، اما في العهد العباسي ولا سيما في زمن المنصور المعروف بحرصه الشديد فقد كانوا يستثنون أحيانا الخراج بولاية الأمير ويجعلونه لعامل مخصوص يسمى صاحب الخراج ، أو يكون له أسم اخر ان هذا التفريق بين الصلاة والخراج أو بين سلطة السياسة وسلطة المال قديم جدا ، وكان عند الانبراطورية البيزنطية سنة متبعة وعادة معروفة ، فان الامراء الذين كانت ترسلهم القسطنطينية الى الاقاليم التابعة لها كانوا يجمعون السلطات كلها ما عدا السلطة المالية فهذه كانت موكولة الى عامل مخصوص • يسمى (برونويتر) يقولون عنه أنه بمنزلة وزير العدل والمال ، وكان يكاتب الانبراطور ويرسل ما يفيض من الاموال عن نفقات الاقليم •

سلطة الامراء :

كانت سلطة الامراء في عهد المنصور محدودة ، فلم يكن يولي اميرا مدة طويلة ، واذا عزل أميرا ما حاسبه أدق محاسبة ، فاذا ارتاب في امانته اقل ارتياب استصفى املاكه وبالغ في تعذيبه وفي عهد الخلفاء الذين جاؤا بعد المنصور اتسعت سلطة الامراء ، واطلقت يدهم للعمل والابتكار فكانوا في ذلك الحين هم رؤساء الادارة وقواد الجيش لكنهم كانوا معرضين للعزل بحسب ما يخطر للخليفة •

الامارة الخاصة وحقوقها :

الامارة الخاصة هي ان يكون الامير مقصور الامارة على تدبير الجيش وسياسة الرعية ، وحماية البلاد وليس لـه ان يتعرض للقضاء والاحكام وجباية الخراج والصدقات وليس له التعرض لاقامة الحد لان الحد من الاحكام الخارجة عن خصوص أمارته • فان كان من حقوق الله تعالى كالقطع في السرقة فالامير أحق باستيفائه من القاضي لدخوله في قوانين السياسة ولذلك يدخل في حقوق الامارة ولا يخرج منها الا بنص صريح •

وان كان من حقوق الآدميين كحد القذف والقصاص في نفس أو في طرف كان ذلك راجعا لارادة القاضي ، فان شاء طلب من القاضي أن يستوفيه له وان شاء عدل الى الامير فكان الامير احق باستيفائه لانه ليس حكما بل معونة على استيفاء الحق وصاحب المعونة هو الامير •

ولا يحق لصاحب الامارة الخاصة النظر في المظالم المختلف فيها • لكن له أن يعين المحق على المعترف الماطل ، وله ان ينفذ حكم القاضي ، اذا عجز القاضي عن استيفائه •

ولما كان شرط العلم ليس مطلوبا فيمن امارته الخاصة ، فيرى بعض الفقهاء ان القاضي احق منه بتسيير الحجيج والامامة والصلاة ٠

الفرق بين امارة الاستكفاء وامارة الاستيلاء :

أ ــ ان امارة الاستيلاء متعينة في المستولي ، اما امارة الاستكفاء فمتروكة لاختيار الخليفة أو وزيره ٠

ب ــ امارة الاستيلاء تشتمل على البلاد التي غلب عليها المستولي وامارة الاستكفاء مقصورة على البلاد التي تضمنها عهد المستكفي (أي الخليفة الذي عين الامير) ٠

جـ ــ امارة الاستيلاء تشتمل على معهود النظر ونادره ، اما امارة الاستكفاء فمقصورة على معهود النظر دون نادره ٠

د ــ لامير الاستيلاء ان يستوزر وزير تفويض وليس ذلك لامير الاستكفاء ٠

فصل السلطة المالية عن السلطة الشرعية :

اتبع العرب الخطة التي كانت عند البيزنطيين بفصل السلطة المالية عن السلطة الشرعية ، فقد ارسل عمر بن الخطاب عمار بن ياسر الى البصرة أميرا على الصلاة والحرب وارسل معه ابن مسعود عاملا على القضــاء وبيت المال ، فاشبه ذلك ما كان معمولا به في الانبراطورية البيزنطية ٠

وذكر الطبري ان النبي عليه السلام استعمل (فروه بن مسيل) على (مراد) و (زبيد) و (مذحج) وبعث معه خالد بن سعيد العاص عــلى الصدقه ٠

وولى الخليفة المنصور محمد بن الاشعث على صلاة مصر وخراجها ،ثم بعث اليه (نوفل) بن الفرات ، وقال له اعرض على محمد بن الاشعث ان يضمن خراج مصر ، فان ابى فاعمل على الخراج ، فعرض عليه ذلك فأبى الضمان خوفا من شح الموارد ، فتسلم نوفل الدواوين ، ونقل مركزه الى (دار الرمل) وافتقد ابن الاشعث الناس ، فقيل له هم عند صاحب الخراج فندم ٠

فصل القضاء :

ونستطيع أن نلمح من بعيد مبدأ فصل القضاء ، وان كان ذلك ليس بالمفهوم العصري ، فقد كان الخلفاء الاوائل يولون احيانا القضاء في الاقليم قضاة من قبلهم يقتصر عملهم على الفصل في الخصومات المدنية ٠وكان الامراء أنفسـهم ، اذا ارادوا التهرب من المسؤوليات الصغرى ، يولون قضاة مــن قبلهم ، اذا لم يفعل الخليفة ذلك ، ثم نشأ منصب قاضي القضاة الـذى اشرنا اليه ، فكان من حقه ان يولي القضاة في الامارات ٠

أما الحكم بالعقوبات ، فكان من اختصاص الامير ، الا اذا ورد في كتاب توليته ، نص صريح بخلاف ذلك . وكان حكم الاعدام يحتاج الى موافقة الخليفة ، وقد سن هذه السنة الحكيمة عمر بن الخطاب ، وتابعه عمر بن عبدالعزيز ، وسار على هذا النهج خلفاء بني العباس وقد كان الرومان يشترطون موافقة المجالس النيابية لتنفيذ حكم الموت ، لكي يكتسب الحكم الصورة الشرعية .

ادارة القضاء :

وكانت القضايا الجنائية تعهد الى صاحب المظالم ، وكانت المحكمة العليا تسمى (ديوان النظر في المظالم) وكانت تعقد جلساتها برئاسة الخليفة نفسه ، وينوب عنه في غيابه أحد كبار الموظفين ، واعضاؤها قاضي القضاة والحاجب ، وكبار رؤساء الدواوين التي اقتضاها التنظيم الاداري ، وكان يدعى اليها بعض رجال الافتاء .

وكان غير المسلمين ، توكل قضاياهم لقضاتهم ، ورؤساء دياناتهم . اما المسلمون فكان يفصل بينهم القضاة ، وكان في كل حاضرة قاض ينوب عنه قضاة ، في النواحي التابعة للمدينة ، وكان قاضي بغداد الاكبر يسمى (قاضي القضاة) وهو رئيس قضاة الامبراطورية ، وتسهيلا لاعمال القضاة انشئت وظيفة تشبه ما يسمى في العصر الحاضر (الكاتب العدل) .

ويتفرع عن القضاء نقابة التجار التي انشئت لاول مرة في العصر العباسي وكانت مسؤولة عن مراقبة المعاملات التجارية ، ومنع التدليس . وكان رئيسها ينتخب من بين الاعضاء الممتازين ويسمى رئيس التجار . وكان أعضاء النقابة يدعون (الامناء) وقد انشئت في معظم الحواضر مجالس عرفت بديوان الشورى .

ادارة الجيش العباسي وتوزيع فرقة :

كان الجيش في عهد المنصور يتألف من ثلاث فرق :

أ ــ الفرقة المضرية ــ قوامها رجال من مضر

ب ــ الفرقة الحميرية ــ قوامها رجال من حمير

جـ ــ فرقة الفرس قوامها رجال من الفرس

وفي عهد المعتصم اضاف الى تلك الفرق فرقة رابعة لا يدخلها غير الترك وأهل افريقيا وقد اطلق عليها اسم :

د ــ فرقة المغاربة

وكان الجيش مقسما الى خمسة أقسام :

١ ــ القلب ويحتوي على القيادة العامة .

٢ ــ الميســـره ٠
٣ ــ الميمنة ٠
٤ ــ الطليعة وهي تتقدم الجيش عدة أميال وهي سرية من الفرسان ويلبسون الدروع اللامعة والخوذ الفولاذية ويحملون الرمــاح وقد ربطت باسنتها باقات من ريش النعام ٠

وقد عرف القوم الكشافة ، وكانت مهمتهم اعداد الخرائط ٠ وكان الجيش في اثناء الخدمة الفعلية ينقسم الى :

أ ــ المرتزقة ــ وهم الذين ينالون الرواتب من الدولة ٠
ب ــ المتطوعــون
جـ ــ المشاة أو الضربيــــة وهم رماة الســـهام ــ وأسلحتهم التــروس والاقواس والنشاب ٠

وكان يصحب الجيش جماعة من المهندسين زعيمهم يدعى أمير المنجنيق ومن أعظمهم كفاية (يعقوب بن صدق) المنجنيقي ٠

مناصب اقتضاها التنظيم الاداري في الدولة العباسية :

هنالك مناصب اقتضاها التنظيم الاداري يوم استبحر العمران وهــا نحن ذاكرون أهمها :

أولا ــ العدالة ــ العدالة هي وظيفة دينية تابعة للقضاء ، كان صاحبها يكتب السجلات والعقود ولاصحاب العــدالة مصاطب ودكاكــين يختصون بالجلوس عليها فيقصدهم اصحاب المعاملات للاشهاد ، وتقييد معــاملاتهم بصكوك ، وصار مدلول هذه اللفظة مشتركا بين الوظيفة التي تبين مدلول الكلمة وبين العدالة الشرعية ٠

ثانيا ــ الحسبه ــ وهي وظيفة دينية من باب الامر بالمعروف والنهي عن المنكر ، الذي هو فرض على القائم بأمور المسلمين ، فيعين الخليفة لذلك المنصب من يراه اهلا له ، ويتخذ الاعوان على ذلك ويبحث عن المنكرات ، ويعزر ويؤدب على قدرها ، ويحمل الناس على المصالح العامة في المدينة ،مثل المنع عن المضايقة في الطرقات ، ومنع الحمالين وأهل السفن عن الاكثار في الحمل ، والحكم على اهل المباني المتداعية للسقوط بهدمها ، وازالة ما يتوقع من ضررها على السابلة والضرب على أيدي المعلمين في المكاتب وغيرها مــن الابلاغ في ضربهم للصبيان ، وقــد كــانت الحسبة موجــودة قبــل العصر العباسي ٠ وصاحب الحسبة يدعى المحتسب يراقب الغش والتدليس في أمور المعيشة والمكاييل والموازين ٠

ثالثا ــ صاحب المدينة ــ هو صاحب الشرطة وكانوا يسمونه صاحب المدينة ، اما ضابط الشرطة فكان يدعى صاحب الليل ٠

رابعا ــ الداريون ــ هم حراس الليل ومهمتهم اقفال أبواب المدينة

الداخلية بعد صلاة العشاء وكانوا مسلحين دائما يحملون الفوانيس وتصحبهم كلاب الحراسة ٠

خامسا ـ أمير الماء ـ هو القائد البحري وكانوا يسمونه في العصور الاولى أمير الماء ، وقد اخذها الافرنج فقالوا ادميرال وأميرالت ثم أخذها العرب عنهم مشوهة فقالوا (الميلانه) ٠

سادسا ـ أستاذ الدار ـ أو ناظر القصر ـ كان استاذ الدار أو ناظر القصر شخصية لها قيمتها وأهميتها ، الى حد أن أمراء آل بويه لقبوا انفسهم بهذا اللقب ، وكان استاذ الدار يتولى شؤون دار الخليفة ونفقاتها وأمور الاسرة العباسية المقصورة في دار الخلافة ، كاخوة الخليفة واعمامه وابناء أعمامه وفي عهد الخلفاء الضعفاء استبد أمير الامراء بهذا المنصب مع وظيفته الاصلية ٠

سابعا ـ وكيل الخليفة ـ كان وكيل الخليفة يمضي المعاقدات والمعاهدات والبيعات نيابة عن الخليفة ٠

ثامنا ـ السلطان ـ كان الواثق تاسع خلفاء بني العباس الذي بويع بالخلافة في كانون الثاني ٨٤٢ وتوفي سنة ٨٤٧م في ١١ آب ول من لقب قائده (أشناس) بلقب السلطان ووضع على مفرقه تاجا مرصعا ، وقلده قلادة وسوارين ويظهر ان هذا المنصب ظل مهملا الى أن نشأت دولة بني بويه فأخذ الخلفاء يقلدونهم باحتفال عظيم وكان السلطان هذا يلبس حلة من الحرير مزركشة ثم يتوجه الخليفة تاجا مرصعا وسوارين ويقلده سيفين ، رمزا الى ان السلطة العسكرية والسلطة المدنية قد حصرتا فيه ، وكان يعقد له لوائين احدهما مزخرف بالفضة على نهج ما يمنح للاشراف والآخر مزخرف بالذهب على نحو ما يعطى لاولياء العهد ، وكانت وثيقة التولية تقرأ في حشد حافل بعد ذلك يقبل السلطان يد الخليفة وينصرف ٠

ولم يكن لقب السلطان محصورا في آل بويه بل كان الخليفة يلقب به الغزاة والفاتحين امثال محمود الغزنوي ، وآلب أرسلان وملكشاه ، وصلاح‌الدين ، وعندما كان الخليفة يمنح هذا اللقب لاحد الامراء كان اللقب يصبح وراثيا على شرط ان يقدم اليه الامير عند التولية طلبا رسميا وكان الخليفة بطبيعة الحال يوافق على التعيين ويخلع على السلطان خلعة التشريف ٠

تاسعا ـ لقب الملك ـ أنشأ الخليفة المقتفي لامرالله وهو الخليفة الحادي والثلاثين بويع سنة ١١٣٦ وتوفي سنة ١٢٦٠ ـ انشأ لقبا جديدا اطلق عليه اسم (الملك) كان يمنحه أحيانا مع لقب السلطان ويمنحه أحيانا أخرى من غير لقب السلطان ولكنه كان اذا انعم به على احد قرنه عادة بعبارة تتناسب وصفات الملك البارزة ، وأول من انعم عليه بهذا اللقب نورالدين محمود زنكي استاذ صلاح‌الدين الايوبي ولقب محمود هذا بالملك العادل ٠

وظائف متنوعة :

لكن لما كانت خلافة الناصر وهو الخليفة الرابع والثلاثون أصبح الملك لبلدة صغيرة يسمى نفسه ملكا .

كان في هذه الدولة وظائف لا سبيل الى حصرها منها :

أ ـ نظام المارستان ـ تشبه وزارة الصحة .
ب ـ نظارة الاوقاف .
ج ـ مشيخة الاسلام .
د ـ منصب التدريس .
هـ ـ مرتبة دار التشريفات .
و ـ صاحب الحجاب .
ز ـ امارة الحاج والوعظ العام في دار الخلافة والوعظ الخاص في الجوامع وكتابة السنة بديوان الزمام والنظر في دار الضرب .
ح ـ الزعيم ـ كان الخليفة يرسل الى بعض البلاد زعيما وظيفته الزعامة وهو الذي يتولى حرب البلاد وخراجها وادارة أمورها ، وكان بعض المؤرخين يسمي أمثال نورالدين زنكي زعيماً .
ط ـ واحدث ديوان سموه ديوان عرض الجيش ـ يتولى شؤون العساكر ، فاذا عظم الفرق بين جنسيات العسكر استعمل ديوانان للعرض (١) ديوان العقاب (٢) ديوان المقاطعات . وكان أمير الجيش تركيا غالبـــا .
ي ـ ديوان التركات ـ واحدث ديوان للتركات لان الذين كانوا يموتون بلا وارث ترثهم الدولة بحكم الشرع الاسلامي .

انحطاط الوزارة :

صارت الوزارة في الدولة العباسية مطمـع الناس فصاروا يبذلون الرشوة للحصول عليها ، اما الذين لهم تأثير عند الخليفة مباشرة ، كمـا فعل ابن مقلة للخليفة الراضي اذ بذل خمسمائة ألف دينار للوصـول الى الوزارة ، وكما فعل ابن جهير اذ ابتاع الوزارة من القائم بامرالله (٢٦) الذي تولى الخلافة سنة ١٠٣١ وتوفي سنة ١٠٧٥ ـ ابتاعهـا بمبلغ ثلاثين ألف دينار ـ وكان الوزير يشتري الوزارة على هذا الاسلوب لانه يعلم انه يسترد ما دفع بسرعة بالارتشاء ممن يوليهم .

ومن غريب ما يحكى عن انتشار الرشوة في العصر العباسي ان الوزير الخاقاني أحد وزراء المقتدر بلغ من سوء سيرته في قبول الرشوة أنه ولى في يوم واحد تسعة عشر ناظرا الكوفة ، واخذ من كل واحد منهم رشوة فانحدروا واحدا واحدا حتى اجتمعوا كلهم في بعض الطريق فقالوا كيف

نصنع ؟ فقال احدهم ينبغي ان اردتم الانصاف ان ينحدر الى الكوفة آخرنا عهدا بالوزير فهو الذي ولايته صحيحة ، لانه لم يأت بعده أحد ، فتوجه الاخير الى الكوفة ، فتصدى للوزير الخاقاني بعض الشعراء وهجاه بقوله :

وزير لا يمل من الرقاعة — يولي ثم يعزل بعد ساعه
ويدني من يعجل منه مال — ويبعد من توسل بالشفاعه
اذا أهل الرشى صاروا اليه — فاحظى الناس أكثرهم بضاعه

لـكن مع ذلك فقـد اشتهر من وزراء الدولة العباسية من عـرف بالنزاهة الى حد لا يمكن معه اغراؤه مثل (علي بن عيسى) أحد وزراء المقتـــدر ٠

وكان من أغنى الوزراء وأكثرهم ارتشاء واشدهم افراطا في الكرم (أبو الحسن ابن الفرات الذي وزر للمقتدر وجمع سبعة ملايين دينار في وزارته الاولى صودرت كلها منه ووزر مرتين للمقتدر من ثلاث سنوات جمع فيها عشرة ملايين دينار وضياعا يستغل منها مليونين سنويا ٠ وكان مفرطا في الكرم فحمله كرمه من الهجاء ومن المؤرخين ، فكان اذا وزر يرتفع ثمن الشمع والورق واللحم وغيره ٠

أمير الامراء :

وهو منصب استحدثه الخليفة الراضي ليحمي به نفسه ، فلما رأى اضطراب الاحوال كاتب ابن رائق وهـو بواسط يعرض عليـه الولاية في بغداد ، فلما حضر قلده منصب أمير الامراء وولاه الخراج والمعاونة في كل البلاد وجعل له الاشراف على الدواوين وأمر ان يخطب له على جميع المنابر ، وانفذ اليه الخلع فانتقل السلطان في بغداد اليه ٠ ومن ذلك الوقت بطلت الدواوين وبطلت الوزارة ، فلم يكن الوزير ينظر في شيء بل ان رائق هو الحاكم المطلق في كل شيء ، وكل أمير تولى بعده سار على نهجه ، فصارت الاموال تحمل الى أمير الامراء وهو يتصرف بها كما يريد ٠ ويعين امير الامراء للخليفة ما يريد وبطلت بيوت الاموال وتغلب كل مغامر على ما عنده ، ولم يبق للخليفة غير بغداد واعمالها ، وكان منصب أمير الامراء تصفية نهائية لهيبة الوزارة في الدولة العباسية ٠

نظام الاقطاع :

والالتزام ــ كان الناصر لدين‌الله العباسي يقطع أكثر البلاد امراءه ورؤساء الناس المشهورين ، ويعين صدرا للبـلاد ، والصـدر هو حاكمها الاكبر ٠ فالمقطع بلدا يتعهد للدولة أن يحمل الى ديوان الزمام الذي كان يسمى ديوان العزيز ما لا يتفق عليه الطرفان سنويا ، وبعض الرؤساء كان

يضمن لبلاده بخراج معين يحمله للديوان وقد نشأ هذا الاسلوب الظالم في الدولة العباسية . وكان الذي يتأخر في الدفع أو يتهم بأنه اخفى على الملتزم شيئا تستصفى امواله ويعذب . وكان الملتزم يأخذ معه احد الشهود لتقدير البلد وتعيين انتاجه ، واتفق ان احد الظامنين جبى من أهل بلدة قومستان ـ قصبة من قصبات خرسان ـ عشرة آلاف دينار ، فلما سأله الشاهد عن المال قال أنه لي ولك وللكاتب والبراطيل ونفقة الحبس . فلما أحس الديوان بما فعله الضامن الظالم احتجزه هو والمال ، وكان لكل بلد ديوان ، اما بغداد فكان ديوانها يدعى الديوان .

مراتب القضاء ـ والنقابات :

كان للقضاء في بغداد ثلاث مراتب ، ومرتبة واحدة في غير بغداد :

أ ـ قاضي القضاة وله ديوان الحكم وهو الذي يسجل باسم الخليفة ، وباسمه يسجل أقضى القضاة .

ب ـ أقضى القضاة .

جـ ـ القاضي .

كان قاضي القضاة يعين لكل ربع من أرباع بغداد قاضيا يدعى الفقيه ، وكان للقاضي شهود عدول مزكون ، والقاعدة ان يكون المزكون اثنين ، وهم يتولون الشهادة أمام القاضي لاثبات الحكم وكان لمنصب القاضي في أيام عظمة الدولة هيبة تخيف امراء البيت الحاكم انفسهم ودليلنا على ذلك قصة المرأة المتظلمة من الامير موسى بن عيسى عم أمير المؤمنين يوم رفعت دعواها لشريك بن عبدالله قاضي الكوفة ، توفي شريك سنة ١٧٧هـ ٧٩٢م ـ .

اما النقابات التي تتولى الاشراف على أمور الاشراف فكانت ثلاثا :

أ ـ نقابة العباسيين يتولاها عباسي .

ب ـ نقابة العلويين يتولاها علوي .

جـ ـ نقابة النقباء ويتولاها عباسي .

الخراج في عصر المأمون أهم أدوار الدولة العباسية :

بلغ مجموع الخراج في عصر المأمون خمسة ملايين ومائة الف والف دينار ، ولعل احدا منكم يسأل عن جباية الاردن وفلسطين من هذا المقدار . فقد كان خراج الاردن (مائة الف وتسعة آلاف دينار) وكان خراج فلسطين (مائتي الف وخمسة وتسعين الف دينار) (الخراج ضريبة الاراضي لانهم كانوا يعتقدون أن الارض ملك للملك أو الخليفة) .

مركز المرأة في الادارة :

كان الخليفة المتوكل على الله قد ضرب المرأة العربية الضربة القاضية ، فحولها الى الحريم بعد أن كانت ترافق الجيوش وتتولى قيادتها كما حصل مع الملقبة بـ (جندارك العربية) (ليلى أخت الوليد بن طريف) أحد الزعماء الثائرين لقد تولت القيادة بنفسها واشتبكت مع جيوش الرشيد في معركتين هائلتين وكانت رائعة الجمال تحفظ الشعر وتنظمه وقد اضطرها احد اقاربها ان تلقي السلاح ففعلت ·

ومن أثر المرأة ما كان من زبيدة زوج الرشيد يوم أمرت بحفر عدة آبار في مكة عندما حجت وما زال اسمها يطلق على تلك الآبار ·

لكن مع كل الذي صنعه المتوكل هذا الخليفة الذي طارد حرية الفكر بكل انواعها وهدم قبر الحسين في كربلاء وأمر بزرعه وسقيه ومنع الناس من زيارته ، وانتهى به المطاف ان مات مقتولا وكان ابنه في عداد المتآمرين عليـــه ·

أجل مع كل ذلك ، فان أم المقتدر في أواخر عهد المقتدر قد تولت أمور الدولة وكانت المراسيم تصدر باسمها ، وتجلس في أيام الجمعة للمظالم ، يحيط بها رهط من القضاة والاعيان ·

مواكب الخلفاء وعرض الجيش :

كان المنصور يعرض الجيش وهو لابس حلته العسكرية الكاملة ، اما واقفا على مصطبة أو جالسا على عرش ينصب لهـذا الغرض اما الرشيد والمأمون والمعتصم فكانوا يعرضون الجيش وهم على صهوات خيولهم · اما في المواكب ، فكان الرشيد والمأمون يسيران ببساطة فلم يكن يصحبهما الا حارس أو حارسان ، لكن الخلفاء فيما بعد جعلوا موكب الخليفة خاصة يوم الجمعة بالغا حد الروعة والفخامة ، فكان يتقدم الموكب الغلمان أي رجال الحرس يحملون الاعلام · والمقارع والطرزينات المحلاة بالذهب ، ثم يليهم الامراء من البيت المالك على الخيول المطهمة ، ثم الخليفة ممتطيا جـوادا ناصع البياض وبين يديه الاشراف ورجال الدولة ، وكان الخليفة يلبس في ذلك الموكب القباء الاسود أو البنفسجي الذي يبلغ الى الركبتين ، ويتمنطق بمنطقه مرصعة بالجواهر ، ويلبس قبعة عالية مدببة تسمى القلنسوة وقد زينت بجوهرة غالية وبيده عصا النبي ، والخاتم تتدلى على صدره سلسلة ذهبية مرصعة بالجواهر الثمينة · اما القباء فكان مفتوحا عند الرقبة فيبدو القفطان من تحته زاهيا ، وكانت اكمامه ضيقة ، لكن لما جاء المعتصم وهو الخليفة الثامن أمر بأن تجعل الاكمام واسـعة حتى بلغ عرض الاكمـام ثلاثة أذرع ·

تحية الخليفة :

كان بنو العباس يرتبطون الاسود لاثبات الهيبة في قلوب الرعية(*) .

كان من عادة العرب ان يحيوا الخليفة بوضع اليد اليمنى على الصدر ، واحناء الرأس قليلا ثم رفع الرأس الى الجبهة . اما تقبيل الارض فلم يكن مسموحا به للعامة بل للوزراء . وذكر ان عبدالملك نفر من قبلة اليد .

اما الآن وقد انتهينا من عرض التنظيم الاداري للعصر العباسي فيحق لنا ان نعرج قليلا على النهج الاداري في ديارنا الاردنية العزيزة للموازنة فقط .

النهج الاداري الاردني :

اما النهج الاداري الاردني فقد جمع بين المركزية واللامركزية ، وبكلمة اخرى فانه كان النهج الوسط اذ اختار من المركزية خير ما فيها ، ومن اللامركزية خير ما فيها ، فبذلك جمع بين النظامين فالعناصر المركزية تظهر بالتسلسل الهرمي مبتدئة بالمختارين في القرى ومديري النواحي وقائمي المقامات والمتصرفين والمحافظين الذين يرتبطون بوزير الداخلية فمجلس الوزراء ، فجلالة الملك . وتتجلى اللامركزية في المجالس القروية والبلدية ومجالس أمانة العاصمة التي يجري انتخاب أعضائها في التصويت أما الرؤساء فيعينون تعيينا لذلك فاننا نستطيع أن نقول أن هذا النهج يجمع بين مزايا اللامركزية والمركزية في سبيل تأمين سير المصالح العامة .

خلاصـــــة :

خلاصة ما تقدم أن الادارة هي تنظيم السلطة ، وتحديد صلاحيـــة المسؤولين فيما بينهم ونحو الافراد . ان انتشار الاسلام كان بادرة غريبة في تاريخ الانسانية . ان بني أمية عززوا القومية العربية ، وحكموا حكما استبداديا . وان خلافاتهم وتظافر بني العباس وذرية علي دمر الامويين . ان الدولة العباسية اذلت العنصر العربي لانها قامت بسيوف غير عربية ، لكنها فرضت سيادة اللغة العربية والثقافة العربية على الدنيا . وحكمت حكما مركزيا وكانت تستمد احكامها من القرآن الكريم . واتصفت بالتسامح الا فيما يخص خصومها من آل البيت ومن الامويين ، وانشأت الوزارات ونهجت نهجـا اداريا يرتكز على الخلافة وكان أسلوبا فـذا ، لم يشبه الانبراطورية الرومانية المقدسة التي حاول المحاولون تنصير وثنيتها . وقد كان الخليفة هو الرئيس الاعلى وهو مصدر كل سلطة بعد انتخابه باجماع

(*) فرضت أم جعفر زوج هارون الرشيد على كل زائر لها ان يقبل يد قردها ، وقد جاء يزيد بن مرثد يودعها قبل سفره فكلفوه ان يقبل يد القرد فاستل سيفه وقطعه نصفين .

الامة • وان الدولة العباسية انشأت اول حكومة دستورية في عهد المأمون وكان عندها أدق جهاز مباحث عرفه العالم في ذلك الزمن • وان الوزارة عندهم قسمت الى وزارة تفويض ووزارة تنفيذ • وان الوزارات قد أصبحت عندهم فيما بعد اربعا ـ مالية ، خارجية ، قضاء دفاع ، وانهم انشأوا لتسيير الاعمال دواوين كبرى ودواوين صغرى وان الدولة العباسية لما اتسعت رقعتها أخذت بمبدأ الحياد الا في المسائل التي تهدد أمن الدولة وليس معنى الحياد هذا اللامركزية • واستحدث عندهم منصب الامير • فكانت الامارة عندهم نوعين : امارة الجيش ، وامارة البلاد • ثم امارة عامة هي امارة الاستكفاء وامارة استيلاء • وامارة على الصلاة والخراج ، وامارة على الصلاة خاصة وعرضنا للفرق بين الامارة في عهد بني امية والامارة في عهد بني العباس ووضحنا الفرق بين امارة الاستيلاء وامارة استيفاء ، وذكرنا حقوق الامراء في عهد المنصور ، وحقوق الامارة الخاصة عامة ورأينا ان الاسلام من أول نشأته قد فصل السلطة المالية عن السلطة الشرعية ثم تعرضنا لفصل القضاء وهو مبدأ فصل السلطات ، ووضحنا ادارة القضاء وتعرقنا الى ادارة الجيش وتوسيع فرقه ، وذكرنا المناصب التي اقتضاها التنظيم الاداري فذكرها ـ العدالة ، والحسبة ، وصاحب المدينة ، والدارين ، وأمير الماء ، واستاذ الدار ، ووكيل الخليفة ولقب السلطان والملك • وعرضنا للوظائف المتنوعة ثم ذكرنا انحطاط الوزارة وما رافقها من الرشوة • واستحداث منصب امير الامراء فنظام الاقطاع والالتزام ومفاسدها ومراتب القضاة والنقابات ومقدار الخراج ومركز المرأة ومواكب الخلفاء وعرض الجيش وتحية الخليفة ونهج الاردن الاداري •

●

مراجع البحث :

١ ــ تاريخ التمدن الاسلامي ج١ و٢ و٣ و٤ و٥ ــ جرجي زيدان •
٢ ــ مختصر تاريخ العرب والتمدن الاسلامي ــ سيد أمير علي •
٣ ــ محاضرات تاريخ الامم الاسلامية ــ الشيخ محمد الخضري •
٤ ــ كتاب قصص العرب ج٣
٥ ــ أصول الحكم في الاسلام ــ منير العجلاني •
٦ ــ الحقوق الادارية ــ مصطفى البارودي •
٧ ــ مقدمة ابن خلدون ــ ابن خلدون •
٨ ــ الخلافة ــ السير توماس أرنولد ــ استاذ اللغة العربية بجامعة لندن •
٩ ــ الشرق الاسلامي ــ مؤنس حسين •
١٠ــ مباحث عراقية ــ يعقوب سركيس •

١١ـ مصادر الدراسات الادبية ـ يوسف داغر ٠
١٢ـ الديارات ـ الشابشتي ـ تحقيق كوركيس عواد ٠
١٣ـ الجامع المختصر الجزء التاسع ـ تحقيق الدكتور مصطفى جواد ـ بنفقة الاب انستاس ماري الكرملي ٠
١٤ـ من عيون التواريخ وعيون السير ـ لابي طالب علي بن انجب تاج الدين المعروف بابن الساعي الخازن ٠
١٥ـ العرفان المجلد ال ٤٣ ـ أحمد عارف الزين ٠
١٦ـ تاريخ اليمن ـ تحقيق الاب انستاس ماري الكرملي ٠
١٧ـ اخبار الحكماء ـ لابن القفطي ٠
١٨ـ بغداد في عهد الخلافة العباسية ـ شرانج الانكليزي ٠
١٩ـ الفخري في الآداب السلطانية ـ لابن الطقطقي ٠
٢٠ـ شرح نهج البلاغة ـ ابن ابي الحديد ٠
٢١ـ الاطلس التاريخي ـ هاري و٠ هازارد ٠
٢٢ـ ابن الرومي ـ عباس محمود العقاد ٠
٢٣ـ الافادة والاعتبار ـ عبداللطيف البغدادي ٠
٢٤ـ الخلفاء أمراء المؤمنين ـ جلال الدين السيوطي ٠
٢٥ـ مختصر الدول ـ ابن العبري ٠
٢٦ ـ الاغاني ـ أبو الفرج الاصبهاني ٠
٢٧ـ السنين الضائعة من الحوادث الجامعة ٠
٢٨ـ نظام الحكم والادارة في الاسلام ـ محمد المهدي شمس الدين ـ جامعة النجف ٠
٢٩ـ رسوم الخلافة ـ تأليف ابي الحسن بن المحسن الصابيء ، تحقيق ميخائيل عواد ٠

